

القهوة في دمشق*

ورسالة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي

بقلم: راندي ديغويلهم**

ترجمة محمد وليد حافظ

الرغم من هدوء الحرب الكلامية النشيطة التي دارت حول مسألة القهوة في الوقت الذي حرّر فيه الشيخ القاسمي رسالته في القهوة عام ١٩٠٤، فإن جوّ المقاهي ظل مكاناً مشبوهاً، يجتمع فيه هؤلاء أو أولئك للتسلية بطريقة، تعد مريبة غالباً في أعين السلطات السياسية والدينية.

وصول المقاهي إلى دمشق واتساعها:

الشائع أن عادة شرب القهوة في دمشق دخلت عن طريق الصوفيين الدمشقيين في زياراتهم للقاهرة طوال النصف الأول من القرن السادس عشر حين خالطوا أنصار هذا الشراب، وخاصة الصوفيين اليمينيين من أصحاب الطريقة الشاذلية، والمقيمين في الأزهر. وتروي بعض كتب التاريخ أيضاً أن دخول القهوة جرى عبر صوفيين قدموا إلى سورية مباشرة من المدن المقدسة في الجزيرة العربية. ويروي، في هذا الشأن، المؤرخ نجم الدين الغزي أن الشيخ سعد الدين علي بن محمد العراق جلب في عام ١٥٤٠م حبات من القهوة (١). وإلى الشيخ سعد الدين يعود، على الأرجح، فضل الريادة في تقديم هذا الشراب إلى ضيوفه في بيته بدمشق.

وسواء كان وصولها إلى دمشق مباشرة من الجزيرة العربية أو بتأثير أفواج الصوفيين اليمينيين المقيمين بالقاهرة، فإن ظاهرة المقاهي سرت بسرعة في دمشق فألفت جزءاً متمماً للمنظر الاجتماعي للمدينة منذ منتصف القرن السادس عشر. وابتداءً من هذه الحقبة أصبحت المقاهي مجالات هامة

للألفة المذكورة (بين الذكور) في دمشق وفي حلب أيضاً، فأخذت الأهمية الاجتماعية نفسها التي للحمامات. إن ارتياد الحمام ارتبط إلى حد ما بارتياح المقهى، فالرواد أنفسهم كانوا يستخدمون المجالين غالباً.

كانت بعض المقاهي تفتح أبوابها لكل الناس دون تمييز عموماً، بينما كان لمقاهٍ أخرى زُبُن أكثر تخصصاً (٢). يشهد على هذا أن بعض الحرفيين المنتمين إلى تنظيم حرفي واحد (كار) كانوا يرتادون مقاهي محددة.

كانت المنشآت الأكثر تواضعاً والدكاكين الصغيرة تتألف من عدة "اسكملت" (مقاعد دون مساند)، أو من دكة خشبية متاحة لمن يجد عليها محلاً. ومع ذلك، وعلى الرغم من البساطة اللامتناهية لهذه الأماكن، كان الرواد يتأخرون ليلاً وهم يناقشون الأخبار اليومية وأحداث الساعة أو يتسلون فيها بالألعاب.

وفي المقاهي الكبيرة خصوصاً، كان كثير من الرواد يمضون شطراً كبيراً من الليل مع آخر ابتكار ضروري للتسلية المبتكرة، ويصغون، وهم يتذوقون فناجين القهوة المحضرة غالباً على الفحم ويدخنون النرجيل، إلى الموسيقيين والقصّاصين الذين يروون حكايات من التراث الشعبي منها حكاية عنتره وعبلة، وحكاية الملك الظاهر. وكانوا يشاهدون مباريات في المصارعة أو يلعبون لعبة الورق أو النرد أو الضامة وغيرها.. وكان هناك أحياناً راقصون في المقاهي. وفي شهر رمضان تقدم المقاهي تسليات إضافية مثل مشاهد كركوز المسرودة في حلقات من أجل اجتذاب زُبن الغد.

وبغض النظر عن هذا النوع من التسليات، كان ارتياد المقاهي يعني الانخراط في تيار الأحداث اليومية. ولم يكن من النادر أن يقرأ زبون بصوت عالٍ مقالات من الصحف والمجلات. والحقيقة أنه بهذه الطريقة كانت الأخبار تصل إلى كثير من الأشخاص ولاسيما الأميون. وكانت تجري مثل هذه النشاطات في أغلب المقاهي، ولاسيما المقاهي التي سُميت فيما بعد المقاهي الأدبية، حيث كانت تناقش أحداث سياسية، بل واتجاهات ثقافية حديثة.

وأخيراً كان بعض "العلماء" يرتادون المقاهي ليقابلوا الناس فيها لنشر الدعوة الدينية عن طريق الحكايات.

مقاهٍ في دمشق:

تحتل المقاهي مكاناً وسيطاً في المخطط المعماري للمدينة المسلمة. وهي ليست ساحات عامة كالمساجد الكبرى، وليست أماكن شخصية كالمنازل، فساحات المقاهي تشابه غالباً ساحات الحمامات. وهي مفتوحة للناس كلهم تقريباً، ولكن الذين لم يألفوا ارتيادها يبدون غرباء في أعين الرواد الدائمين.

وبفضل دراسة مستقصية للمصادر من أصولها نستطيع أن نعيد بناء الحياة الاجتماعية - الاقتصادية، وكذلك السياسية، التي كانت تجري في محيط المقاهي. ومن هذه المصادر المحاضر، المحررة في سجلات المحاكم الشرعية، وجرّد البيانات بعد الوفاة، ووثائق الأوقاف، والمحاضر الشرعية الأخرى التي تسرد فيها المعلومات التي تخص أبنية المقاهي وبيعها وشراءها ووقفها وإيجارها. ومن جهة أخرى فالأبحاث التي كتبها العلماء، والمذكرات والصور الفوتوغرافية القديمة، والرسوم اللادعة غالباً، والمنشورة في صحف العصر ومجلاته... لها أهمية رئيسة في هذا الصدد.

يقدم المؤرخ «البديري الحلاق» بعض المعلومات عن مقاهي دمشق في منتصف القرن السابع عشر، ففي هذا العصر كان مقهى الخنديزاتية (الموصوف كما لو كان قريباً من بيت السفرجلاني) مكاناً هاماً مجاطاً بدكاكين، ومقهى المناخلية (الذي استمر قرنين فيما بعد) كان يقع قرب القلعة، وقد قاسى كثيراً من الأمطار الغزيرة التي هطلت عام ١١٦٠هـ = ١٧٤٧م عندما تسرب الماء إلى داخله إلى ارتفاع ذراع رجل (٣). وكان العسكريون خاصة هم الذين يرتادونه لوقوعه قرب القلعة.

في عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م كان رجل السياسة الحاج أسعد باشا العظم أحد أهم البناء الطامحين والذي لم تعرف دمشق له مثيلاً في هذا المضمار آنذاك، كان قد رمم على نفقته مقهى المناخلية، وكذلك الدكاكين المجاورة ومجاري الماء التي تغذي المنطقة. وبعد عامين، أي عام ١١٦٩هـ - ١٧٥٥م، بنى أسعد باشا مقهيين جديدين، أحدهما في «باب سرجية» والآخر أمام «باب مصلى» وفضلاً عن ذلك أكمل بناء مقهى يسمى الصاغور كان قبلُ استراحة شيخ حي الساروجة.

إن عدد المقاهي الكبير في دمشق، ومنها المتواضع ومنها الفخم، لفت انتباه الرحالة الأوروبيين، فقد لاحظ جان دو تيفانو، بين آخرين، أنه في بداية القرن الثامن عشر كان للمقاهي الكبرى في دمشق فناء داخلي مع نبع ماء في الوسط. والبناء كله مظلل بالأشجار ومعطر بالزهور البراقة، وكان منها «المقهى الكبير» قرب مسجد السنانية. وكثير من المقاهي كان يقوم على ضفاف الأنهار التي تجتاز دمشق مهدية عذوبة الماء الجاري إلى زبُنْها (٤).

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أو قبل قليل من كتابة الشيخ جمال الدين القاسمي رسالته، تشهد المصادر أنه كان في دمشق ما بين مئة وعشرة مقام إلى مئة وعشرين (٥)، نذكر منها مقهى السكرية ومقهى القماحين اللذين يقمان في باب الجابية، والدرويشية في الحي الذي يحمل اسمه، والعصرونية الذي استغرق بناؤه أربع سنوات، والرطل في باب توما، والصوفانية خارج باب توما تماماً، والمناخلية قريباً من القلعة، والجنينة، وكازينات في سوق الخيل، وجاويش في القيمرية، والعمارة في الحي الذي يسمى باسمه، ومقهى باب السلام (٦)..

وكان سعر مشروب القهوة يتراوح بين ٥-٢٠ قرشاً (بارة) حسب غلاء المكان (٧).

أما التسلّيات المقدمة في المقاهي فمعلوماتنا قليلة عن ضروب النشاط الدقيقّة التي كانت تمارس في هذا المقهى أو ذلك طوال القرون السابقة. أما في مقاهي مطلع القرن العشرين فإن

الذكريات الشخصية تساعد على ملء هذه الفجوات. وعلى سبيل المثال، ووفقاً لذكريات أحد الدمشقيين، ففي مقهى كريستين، في حي المرجة بدمشق، الذي اكتسب تسميته من الراقصة والمغنية الأرمنية، كان الاستمتاع برقص مدام كريستين والاستماع إلى أغانيها في المقهى (الذي يملكه زوجها) شيئاً مطلوباً جداً بين البرجوازيين، في حين لا يملك الآخرون تكاليف الدخول (٨).

أما عن أوصاف المقاهي الكبرى فقد كانت الجدران الخارجية مدهونة غالباً بألوان زاهية، والداخلية مجهزة بديكور مدهش. والوصف التالي لبناء مقهى كبير بدمشق مستخلص من وثيقة رسمية حرّرت عند القاضي خورشيد أفندي عام ١٩١٤م بدمشق، تتعلق بمقهى (قهاوخانة) مملوك بالوقف من أسعد باشا العظم، ومؤسس في منتصف القرن الثامن عشر (٩). يهمننا وصف المقهى من الداخل، وهو خارج السور في سوق الجمل قريباً من سوق الخيل، وكلا السوقين في منطقة سوق ساروجة، يطل جانبه الجنوبي على بردى. يقول الوصف: طابقان مجهزان بمرافق المياه، يفتحان على فناء مغطى، في كل طابق غرف خاصة بالزبّين.

يمكن، وفقاً لنص الوثيقة، التحقق من كثير من الأشياء انطلاقاً من وصفها الموجز لما في داخل مقهى كبير، فوجود طابقين للمقهى وغرف متنوعة يدل على أنه كان للبناء وجوه استعمال متعددة. كان يستخدم طبعاً بوصفه مقهى عدة ساعات في اليوم، لكن لغرف الطابقين استعمالاً إضافياً، فربما تؤجر لبعض الناس ممن يحتمل أن يكونوا من عزاب المدينة أو أشخاصاً عابرين. وفي هذه الحالة يترافق المقهى بفندق. وكذلك يمكن أن تستعمل هذه الغرف أماكن للألعاب أو للقاءات عاطفية ومن جهة أخرى كان فناء المقهى مغطى، في حين أن معظم الفنادق الكبيرة، وفقاً للصور الفوتوغرافية المأخوذة في القرن التاسع عشر، كانت أفنياتها مكشوفة. وهذا الاختلاف يشهد على تنوع فن عمارة الفنادق الكبرى في نهاية العصر العثماني في دمشق.

رسالة الشيخ جمال الدين القاسمي في القهوة:

في نهاية القرن التاسع عشر، في دمشق، لم تعد مسألة القهوة شراً وأماكن مثيرة كما كانت سابقاً، ولم تعد تطرح مشكلة أمام رجال الدين أو الأدب، بل على العكس انصب اهتمام العلماء آنذاك على الجانب التاريخي لظاهرة القهوة، وخصوصاً لمن كانوا كانوا يبحثون في التقاليد الشعبية. وضمن هذا المنظور التاريخي أنشأ الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي رسالته في القهوة عام ١٩٠٤ (١٠)

ولد الشيخ جمال الدين في دمشق عام ١٨٦٦ وتوفي بالحمى التيفية عام ١٩١٤. وانخرط، وهو المنحاز إلى والده الشيخ السلفي محمد سعيد القاسمي، في الحركة الدينية الإصلاحية العقلانية التي كانت السلفية. وكما تشير تسمية الحركة فإن سلفي دمشق اتخذوا النظريات الأولى للإسلام أنموذجاً، أي الإسلام الخالي من الممارسات الصوفية ومن زيارة قبور المباركين المسلمين، ومن الأعراف المحلية المختلطة بالدين. وفي رؤية السلفيين كان الاسلام ديناً عقلياً ومنطقياً وعلمياً. وكان على

القهوة ؛ خصائصها النباتية والنفسية:

هذه هي الخصائص الطبيعية التي كانت معروفة عن نبات القهوة في منطف القرن العشرين انطلاقاً من لمحة المؤلف: تنبت القهوة، وعلى نحو أدق شجيرة القهوة، عفواً في الأجواء الحارة من أثيوبيا وعلى شواطئ البحر من اليمن. وتصل أنواعها إلى ثلاثين نوعاً مختلفاً. وترتفع ما بين خمسة عشر وعشرين قدماً (القدم مقياس يساوي خمس عشرة بوصة تقريباً، كان مستعملاً في العصر العثماني) لها قليل من الفروع التي تحمل كثيراً من الأوراق الملونة، ففي قمة الشجيرة أوراق زاهية بيض، في حين أنها في وسط الشجيرة وأسفلها خضر داكنة. ومع أن حبة القهوة (البن) لا تنشر أي رائحة وهي على الشجيرة، فإن الأزهار التي تغطي الشجيرة بغزارة تنشر رائحة زكية. وتنتج الشجيرة خمسة أرتال من الحب في كل قطعة، خلال ثلاثين عاماً إلى أربعين، ويجنى المحصول مرتين في السنة، مرة في الربيع ومرة في الخريف عقب ظهور البراعم الأولى بأربعة أشهر.

والمؤلف، مثله مثل الذين كتبوا عن القهوة، لم يبق غير مبال بالشراب فهو يحذر بوضوح من أن شرب القهوة بطريقة متكررة يؤثر في التمثل الغذائي للجسم، وينقص شربها المتعاقب الشهية ويسبب الأرق، ويفقد الاحساس بالتعب الجسمي، وأخيراً يتسبب في عجز جنسي (١٣).

ولكنه بالمقابل يؤكد تأثيرات الشراب الايجابية، ولا سيما خصائصه المنعشة للفكر لأجل الدراسة أو الصلاة. ومع ذلك، فإن الشيخ، وقد حسب حساب الطبيعة الانسانية، لم ينكر التسلات التي كانت تستمر إلى الصباح في صحبة هذا المشروب، منوهاً بصحبة الرفاق في الوقت ذاته. ويتحدث الشيخ عن مزية أخرى للقهوة، فإذا أخذ إلى الحد المهضم بعد وجبة غنية فهي تخفف الشعور بالامتلاء وتساعد على الهضم (١٤).

ويعترف الشيخ جمال بأثر القهوة في التمثل الغذائي فينصح بعدم إساءة استعمالها، بل بتذوقها بكميات صغيرة، ولا يعتقد أنها تصنف في المشروبات المخدرة كالهرويين، ولا يولي أيضاً أهمية لكون القهوة اسماً للشراب الكحولي: الخمر (١٥). ويذكر هذه المعلومة في توطئة دون أن يحتملها حكماً خاصاً.

أصل عادة القهوة لدى المسلمين:

جلب العرب شجيرة البن من أثيوبيا إلى اليمن «منذ زمن طويل فالتاريخ الدقيق مجهول» (١٦) ثم انتقلت عبر اليمن إلى الهند فأوروبا وأمريكا الشمالية. ويؤكد المؤلف أنه شراب أثير جداً في أوروبا. أما فيما يخص العرب فإن الشيخ يوافق على الرواية التقليدية التي تقول إن القهوة مرت من أثيوبيا إلى اليمن فسائر الأقطار العربية.

بيد أنه خلافاً لمعظم المصادر التي تنسب نشر القهوة في استنبول إلى رجلين سوريين هما حكيم وشمس، فإن مؤلفنا يذكر أن السلطان سليماً العثماني جلب هذا النتاج إلى استنبول عام ١٥٠٧م مباشرة من إيران حيث كان معروفاً منذ عام ٨٧٤م. لكنه يروي أنه في هذه الحقبة لم يكن يُشرب شراب محضّر من الحبوب وإنما الأرجح أنه محضّر من قشرة نبات القهوة (١٧).

ويشير المؤلف كذلك إلى تاريخ وصول القهوة إلى دمشق، ففي حديثه عن مؤلف من منتصف القرن السابع عشر هو نجم الغزي، يعتمد هو الآخر على ابن طولون، يؤكد أن الشيخ سعد الدين علي الشامي، ثم الحجازي، كان أول من جلب معه هذا الشراب المشهور إلى دمشق ١٥٤٠م في طريق عودته من الأماكن المقدسة (١٨). وقد اعتاد سكان دمشق هذا الشراب سريعاً. والشيخ سعد الدين نفسه هو الذي اتخذ عادة تقديم القهوة إلى ضيوفه الكثيرين. ويعود دخول عادة شرب القهوة إلى حلب، في الظاهر، إلى الشيخ سعد الدين نفسه، وكان قد استراح فيها بعض الوقت.

ويرى المؤلف، وهو يروي هذه القصة أن من الجدير بالملاحظة كون الشيخ الشامي سعد الدين من أنصار القهوة، في حين أن أباه ابن العراق، المستشار الفقهي لمكة والمدينة، كان قد منع هذا الشراب في حالات خاصة.

القهوة والمقاهي بين سماح العلماء ومنعهم:

في دمشق، كما في القاهرة، وكما في غيرهما حيث كانت القهوة تقدم، كانت هناك مجابهاة، بل ومشاجرات بين أنصارها وخصومها. ففي أواسط القرن السادس عشر. وخلال أحد أوائل النزاعات في هذا الموضوع، وقف عدد من العلماء إلى جانب يونس العيطاوي الشافعي الذي حرر رسائل كثيرة في ذم القهوة. ولكن كثيراً من العلماء اختاروا في الوقت نفسه الموقف الأسهل، وهو الاعتدال. بل إن بعضهم كان يحبّذ هذا الشراب وارتياذ المقاهي (١٩).

أما الشيخ جمال فلم يرأي شر فيها إذا استهلكت بمقادير قليلة، أي بما لا يزيد على كوبين في اليوم.

ويذكر الشيخ جمال لدعم موقفه ثلاثين فتوى من سلطات دينية كانت كلها، باستثناء ثلاثة منها، إلى جانب القهوة. وتعود استشهادات الكاتب تاريخياً إلى المراجع الأولى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين وقت كتابة هذه الرسالة. وكان بعضهم يشيد، في فتاواه وأشعاره وكتاباتة الأخرى، بشرب القهوة بوصفها شراباً منعشاً للتفكير، وبعضهم يحث عليه لخصائصه التي تذهب الهموم والمشكلات، وبعضهم الآخر يمدحه لأثره صحياً.

وقبل أن يقدم آراء هذا الفريق وذلك يحدّد الشيخ جمال قهوة اليوم التي تصنع من حبة القهوة لتمييزها من قهوة الأمس التي كانت تحضّر من قشرة الشجيرة. ومع ما يبدو من اختلاف الشرايين والتأثيرات التي يسببونها في الجسم فإن كليهما في رأي الشيخ مباح (٢٠) ..

يبدأ المؤلف بالعالم ورجل الدين غرس الدين الخليلي، الخطيب والامام والمدرس في المسجد النبوي بالمدينة (٢١)، والمتوفى عام ١٦٧٥م، فوفقاً لفتواه لا يختلف البن عن العسل (هذه المقارنة تجري اعتيادياً مع نتاج مباح). أو عن أي نتاج مباح في الإسلام. وهو إلى ذلك يرى أنه "حتى لو كانت القهوة تثير بغض الاغتباط فإنه اغتباط لايسوغ المنع. وكلّ من يقول العكس لايبني رأيه إلا على أساس أوهى من خيط العنكبوت" (٢٢).

ثم يذكر في الوقت نفسه مصدرين منعاً تداول القهوة: إمام الشافعية الكازروني (١٥٧٢-١٦٤٨) والامام شمس الدين القطان، وكلاهما كان يعمل في المدينة المنورة. ولايورد المؤلف مقبوسات عن هذين العالمين، لكنه يكتفي بأنهما كانا يعارضان الشراب.

ويمر كذلك مروراً سريعاً بالرأي الأكثر وضوحاً وهو رأي شيخ الاسلام أبي السعود الذي أنشأ في منتصف القرن السادس عشر فتوى تحظر شراب القهوة إذا كان قد أحرق لدى تحميسه. لكن الاعتبار الاقتصادية الهامة وكذلك شعبية الشراب عند جميع الطبقات (منذ منتصف القرن السادس عشر) كانت شديدة جداً وبلغ من شدتها أن فتوى شيخ الاسلام أثارت وابلأ سريعاً من الفتاوى التي تسمح به، ورغم هذا الحدث الذي يفسر هكذا غالباً في المصادر المتعلقة بالقهوة فإن الشيخ جمال يشرح وفقاً لنجم الغزي أن منع شيخ الاسلام للشراب يكشف غالباً القلق السياسي من المقاهي بصفاتها أماكن فاسدة.

ثم يقدّم المؤلف في القسم الباقي من رسالته آراء مختلف السلطات الدينية التي كانت موافقة على شراب القهوة، فيذكر أولاً الشيخ سعد الدين علي الشامي الذي حرّر خلال إقامته في حلب منذ بداية عام ١٥٤٠م فتوى في الموافقة على القهوة، فهي في رأيه تنشّط الانتباه الروحي والجسمي فتساهم في تحقيق العمل الجيد. وبالمقابل فإن الامتناع عنها لايلقي هوى لدى شاربها لأنه يبعث على الخمول. بل إن كل من يعتقد أنها تتسبب في إفساد السلوك والوقوع في شرك الجريمة لايبني وجهة نظره إلا على أقاويل، بل على أكاذيب (٢٣).

ويذكر الشيخ سعد الدين، في مجال دعم رأيه، بأن بعض الأتقياء كان لديهم، في بداية الأمر، من الدوافع المبنية على فائدة القهوة ما شجع المسلمين على تعاطيها، ويذكر في هذا الخصوص بالصوفي الشهير أبي بكر بن عبد الله الشاذلي الذي أدخل في الأذهان في أواسط القرن الخامس عشر أن القهوة منشطة للصلاة .

ويذكر المؤلف كذلك أبا الفتح المالكي الذي أيد القهوة أيضاً. والحقيقة أن تحزّب هذا الأخير للقهوة قوي جداً حتى إنه يهاجم بعنف من يعارضون شربها متهماً إياهم بنشر أكاذيب وافتراءات على

الذين يشربونها، ويذكر أبو الفتح أنه يشرب القهوة في المناسبات الرسمية، ملمحاً من طرف إلى أن السلطات تسمح بهذا الشراب، ومن طرف آخر إلى أنه هو نفسه لا يمكن أن يشرب إلا شراباً حلالاً. وفي شعره الذي يتناول هذا الموضوع يستبعد المقارنة بين مفعول القهوة ومفعول الخمر ويعلن أن المفعول المشتبه به للقهوة ليس شيئاً بالقياس إلى الخدر الناجم عن الخمر. ويستفيد من المقارنة التي يرويها الخليلي والتي تسوي بين شرب القهوة وأكل العسل أو اللبن، وثلاثتها صالحة للتناول. وتبقى القهوة شراباً مشروعاً تماماً على الرغم مما تشيعه في نفس شاربها من شعور بالفرح الغامر. وهذا بالاستناد إلى حجج أبي الفتح: «إني أسأل، هل شرب القهوة حلال، وهل لها تأثير ضار، إن شراب القهوة مضمون العواقب ولاخوف إلا من بعض ما يضاف إليها. هذه هي حقيقة القهوة فهي غير ممنوعة، وكيف أقول إنها ممنوعة وأنا أشرب منها. فاشربوا منها يا أهل الخير! ولا تلقوا سمعاً إلى الوشاة. اتركوهم لهواهم الذي لا يرى شراباً غير الماء (٢٥).

وكذلك يقول عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الفاسي إمام المالكية، المولود في فاس وفيها مات عام ١٦٣١م في فتواه: «ليست قهوة البن بمنهي عنها» (٢٦) ويستشهد بأحمد بن عبد الحق السنباطي المصري (ت ١٥٨٦م) (٢٧) الذي يقول: «يجب أن تضرب صفحاً عن كل الأكاذيب الخاطئة المستمرة التي تقال في القهوة، فهي شراب مباح تماماً». ويصرح عبد الواحد، مثل أبي الفتح، أنه يشرب القهوة طوال مجلسه دون أن يضيف إليها (الهيل وغيره) وهي عادة معروفة في بعض الأقاليم.

ثم يناقش الشيخ جمال رأي الشيخ عبد الغني بن اسماعيل النابلسي (١٦٤١-١٧٣١م) الذي تعرّض في مؤلفه عن الخمر لمسألة القهوة، واختار كذلك مقتطفاً من مؤلف الشيخ النابلسي ينوّه فيه بفضل القهوة وأثرها في نفي الهموم وإشاعة مشاعر البهجة دون أن تعرض الجسم للخطر (ويفهم هنا ضمناً أنه يقصد المشروبات الكحولية والمخدّرة).

إن كون القهوة لا تؤذي الجسم، كالخمر، مزية أخرى تغري بترخيصات دينية أخرى يذكرها الشيخ جمال، مثل محمد بن يوسف الرومي (-١٧٥٧) وهو إمام حنفي في مسجد إسكندر باستنبول (٢٨). وينقل المؤلف أيضاً أن النجم الغزي كان قد ابتكر حواراً بين الخمر والقهوة لمقارنة أعراضها المختلفة، وفي هذا الحوار تنتصر القهوة لأنها تزيل الهموم كما تفعل الخمر، لكن دون أن تسبب الخدر للجسم، والصداع للرأس، كما تفعل المشروبات الكحولية (٢٩).

تثير بعض الترخيصات والأشعار، كذلك التي لأبي بكر العصفوري، ومحمد الماماني وإبراهيم المبلط، صوراً براقة للقهوة:

قلبي موزع بين القهوة وعيني الحبيبة

سواد القهوة وبياض الكوب كحديقة الحبيبة في محجرها

والسحابة التي تلف القهوة أهدابها (٣٠).

ويكشف شاعر آخر هو محمد بن عبد القادر اليماني جذر كلمة القهوة لشرح لغوياً الخصائص العجيبة لهذا الشراب. وينصح شعراء آخرون، كزين العابدين بن محمد البكري الصديقي القاهري الشافعي (ت ١٦٠٤م)، وأحمد بن أبي الغناياتي المولود في مكة عام ١٥٦٢م والمتوفى بدمشق عام ١٦٠٦م، وحسين بن أحمد الجزري الحلبي المولود عام ١٥٨٩م بحلب والمتوفى في حماة عام ١٦٢٤م، ينصحون بشربها صافية أو مع إضافات لغرض علاجي، ويزعمون أنها تزيل آلام الرأس، وتشفي الأمراض الهضمية والدورانية. وبعد قرن سيقدر الأوروبيون من أنصار القهوة هذه الخصائص المفترضة لها، ولاسيما مزاياها بوصفها دواء للمشكلات الهضمية، وعلاجاً لعواقب الكحول.

والقهوة مشروب اجتماعي أيضاً يقدم للضيوف. بل إن تناولها في سن الشيخوخة يذكرنا بأيام الشباب الجميلة كما يرى ابن السمان عبد القادر بن أحمد المولود في دمشق عام ١٦٤٥ والمتوفى سنة ١٦٧٧م في استنبول حيث كان يعمل في خدمة السلطان محمد.

وأخيراً تحمس بعضهم لهذا الشراب لأنه يحسن مزاجنا وحاسة اليقظة والنشاط فينا، وهذه صفة مميزة يشاد بالقهوة من أجلها. ولم يجد العالم أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المولود في مصر عام ١٥٦٩م والمتوفى فيها عام ١٦٥٩م شيئاً أفضل من تناول القهوة في الصباح الباكر في غمرة استعداد المرء لأعماله، مثلما يفعل قاضي قضاة مصر وسورية وسالونيك. وفي الحقبة نفسها كان النجم الغزي (-١٦٥٠م) يؤكد اعتماداً على تجربته الخاصة أن القهوة تبعد النعاس عنه في أثناء عمله مع كتبه في الليل.

وختاماً يستشهد الشيخ جمال بواحد من أبناء عصره، وهو محمد بن عمر الحريري (١٨٥٦-١٩١٢م) العالم الشاعر "قائمقام" حماة ومفتيها، والذي كان يفضل القهوة على الشاي لأنها تساعد في عمله، ولاسيما في تقوية قدرته على التفكير وطرده النعاس عنه:

أعطني منها، من هذه القهوة، خلاصة هذه الحبوب المرة لأدفع النعاس عن عيني.

إنها حقاً الموت الذي يمكن لرجل سعيد أن يشتهي.

أعطنيها ممزوجة بالهيل الذي يسبق عطره عطر القهوة.

قدمها لي في فناجين الصيني المزخرفة أجمل زخرفة.

لاشيء كالقهوة بعد الطعام يحب المرء أن يحسبه وهو يغالب النعاس.

ما أبعدما بين القهوة والشاي.

اتركني يامن تدعي الذوق الرفيع هادئاً وانصرف لشايك (٣١).

وأخيراً ثمة بعض الاحتياطات الضرورية في تراخيص العلماء كالشيخ جمال الدين القاسمي وفي الاجازات التي أتى على ذكرها، فقليل كل شيء يجب الاحتراس الشديد عند تحميص حبوب القهوة لتجنبها أي احتراق يفضي إلى فقدانها كثيراً من خصائصها الجيدة و يخلف مذاقاً مرّاً ولاذعاً. وحتى عندما تكون القهوة محمصة تحميصاً صحيحاً، أي في اللحظة التي تكتسب فيها لوناً ذهبياً، ينصح المؤلف بعدم شربها حالاً (٣٢)، وبالمقابل يفضل بالنسبة إلى البن الجزائري - كما يسمى - الانتظار سنة بعد القطاف قبل تحميصه من أجل التلذذ بمذاقه.

ومع أن الشيخ القاسمي يفضل شرب القهوة دون إضافة مواد أخرى إليها، فإنه يؤكد أن كثيراً من الناس يخالفونه الرأي دون أن يعانون أي مضرة. وتبعاً لهذا الرأي ولآراء مؤلفين آخرين منهم أورييون مقيمون داخل الوطن العربي، درجوا على عادة إضافة الأفوايه أو مشتقات الحليب على نطاق واسع، وخاصة في الصباح. ولهذا لا يثبت الشيخ القاسمي أي رد فعل ضار لهذه العادة ولا سيما عادة مزجها بالحليب، فيستنتج أن الشيخ داود الأنطاكي كان مخطئاً عندما أعلن أن هذا الاستعمال يسبب مرض الجذام (٣٣).

إن القهوة، حسب رأي الشيخ القاسمي، شراب مؤات جداً بل مبارك بسبب خصائصه التي تنمي النشاط، ولأجل هذه التأثيرات يجب البحث عنها من أجل أن تعين في المقام الأول على قيام الليل، وفي المقام الثاني لتنشيط الجسم والفكر. فهي تعين على التفوق في العمل الفكري وتسهل الانتباه والفهم والقدرة على التحليل، لذا فهي شراب أهل الأدب والمدرسين والعلماء وباختصار شراب أهل الله (٣٤).

استنتاج:

القهوة هي الشراب المثالي الذي كان يعني حُسن الضيافة ورهافة الذوق في عهد السلطنة العثمانية منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر. وتناولها يصبح عادة في مجتمع الذكور، بل وفي مجتمع الاناث، في الأماكن العامة. بل في المقاهي (التي كانت مقصورة على الرجال حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما بدأت النساء بارتياح بعض المقاهي في استنبول وفي مراكز مدنية أخرى)، وكذلك في الحمامات وفي المجالات التجارية. وحسب الشهادة العيانية في عام ١٧١٧، لليدي ماري مونتاغو، زوجة السفير الانكليزي الشابة، في الدولة العثمانية، وقد قامت بزيارة السوق المركزية لاستنبول، فإن «هذه السوق طولها نصف ميل، مسقوفة ومعتنى بنظافتها إلى أقصى حد، تحتوي ٣٦٥ حانوتاً تبدو مدهونة للتوّ لشدة الحرص على نظافتها، وفي هذه السوق يتنزّه الاشخاص الذين لا عمل لهم، ويتسلون بشرب القهوة أو الشراب المثلج اللذين يروج لهما الباعة بصرخات مدوية» (٣٥).

إن تقديم القهوة في المنزل كان يمثل تصرفاً ودياً يدل على حسن الضيافة والتعذيب واحترام الضيف. وهاهي ذي الليدي مونتاغو التي أدهشها مالمست من لطف ودماثة في تقديم القهوة أو احتسانها عقب زيارة قامت بها لمنزل زوجة الكيخيا، مساعد الوزير الأكبر لاستنبول - تشهد أنه ماكاد الرقص ينتهي حتى تقدمت أربع جوار جميلات يعطرن الغرفة بالبخور، ويقدمن القهوة جاثيات على الركب في فناجين البورسلين الياباني (كذا) البهي على صحون قرمزية (٣٦).

وفي «مقاطعة الشام» العثمانية بعد قرنين، كان الشيخ جمال مايزال مدهوشاً من فضائل القهوة التي تؤدي وظيفة الرباط الاجتماعي والودي، فضلاً عن كونها مادة تعين على الدرس والتفكير.



□ الحواشي:

٥- هاتي الخير: طرائف وصور من تاريخ دمشق ١٩٨٩- ص ١٤٠. ونعمان القساطلي: روض القناء في دمشق الفيحاء - بيروت ١٨٧٦- ص ١٠٩.

٦- القساطلي- ص ١٠٩- ١١٠.

٧- المصدر السابق- ص ١٠٩. والقاسمي: قاموس - ص ٣٦٨. والخير - ص ١٤٠.

٨- حديث في ٣ أيار ١٩٩١ بدمشق مع المستشار القانوني سميح الغبرة، الذي زار وهو شاب مرافق هذا المقهى.

٩- المحضر رقم ٢٥ عام ١٣٣٣/١٩١٤ محفوظات القصر العدلي بدمشق.

١٠- الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي: رسالة في الشاي والقهوة والدخان، منشورة في بيروت - ص ٧ صفر ١٣٢٢/١٩٠٤. أشكر سميح الغبرة حفيد جمال الدين القاسمي على اعارته إياي نسخة من هذا المؤلف.

١١- جيلبير دولانو: أخلاقيات وسياسات إسلامية في مصر في القرن التاسع عشر ١٧٩٨- ١٨٨٢ - القاهرة ١٩٨٢- ص ٣٧٩.

* مقال منشور في نشرة الدراسات الشرقية ، إصدار المعهد الفرنسي بدمشق - العدد ٦٥ - عام ١٩٩٣ .
** باحثة أمريكية .

١- نجم الدين الغزي (١٠٦١هـ - ١٦٥٠م): الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة. نشر جبرائيل سليمان جبور. جامعة بيروت الأمريكية. - بيروت ١٩٤٥ - ١٩٥٨ م - ١٩٨/٢.

٢- محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية. نشر ظافر القاسمي. دمشق ١٩٨٨- ص ٣٦٧.

٣- أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية ١١٤٥-١١٧٥ / ١٧٣١-١٧٦٢ (نشر محمد سعيد القاسمي) القاهرة ١٩٥٩- ص ٨٦، ١٤٥، ١٨١، ١٨٩، ١٩٠.

٤- جان دو تيفاتو: رحلة إلى الشرق - الطبعة الثالثة - أمستردام ١٧٢٧ - المجلد الأول - ص ٧١-٧٢. والكسندر روسيل: التاريخ الطبيعى لحلب - لندن ١٧٩٤ - المجلد الأول - ص ٢٣- والصفحتان ١٤٦- ١٧٤ لأجل حلب.

- ١٢- خير الدين الزركلي: الأعلام ١٩٥٤- المجلد الثاني- ص ١٣١.
- ١٣- القاسمي: رسالة- ص ١٤ و ١٨.
- ١٤- المصدر السابق -ص ١٦ و ١٧.
- ١٥- المصدر السابق -ص ٢١.
- ١٦- المصدر السابق- ص ١٥.
- ١٧- المصدر السابق.
- ١٨- المصدر السابق -ص ١٩-٢٠.
- ١٩- الغزي: المجلد ٢- ص ١١١- ١١٢.
- ٢٠- القاسمي: رسالة- ص ١٨.
- ٢١- المصدر السابق -ص ١٨ و ٢٤-٢٥. والزركلي: المجلد التاسع -ص ١٥٦.
- ٢٢- المصدر السابق -ص ١٨ و ٢٤-٢٥.
- ٢٣- المصدر السابق -ص ١٤ و ٢٠-٢١.
- ٢٤- المصدر السابق -ص ٢٠- الحاشية ١. والغزي: المجلد الأول -ص ١١٤.
- ٢٥- أشكر الأستاذ سهيل شباط الذي ساعدني على ترجمة هذه القطعة. المصدر السابق ٢١-٢٢.
- ٢٦- المصدر السابق - ص ٢٢.

- ٢٧- السنباطي من المذهب الشافعي. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين -دمشق ١٩٥٧ - المجلد الأول- ص ١٤٩-١٥٠.
- ٢٨- كحالة: المجلد ١٢- ص ١٢٥.
- ٢٩- القاسمي: رسالة- ص ٣٠-٣١.
- ٣٠- المصدر السابق - ص ٢٨-٣٠.
- ٣١- كحالة: المجلد الثاني -ص ٨٠-٨١.
- ٣٢- محمد سعيد القاسمي: والد الشيخ جمال يقدم كذلك النصيحة نفسها في قاموسه. القاسمي: قاموس -ص ٥١- الحاشية ١٨ و ص ٣٦٧-٣٦٨.
- ٣٣- القاسمي: رسالة- ص ١٧.
- ٣٤- المصدر السابق -ص ١٧.
- ٣٥- الليدي ماري مونتاغو: انكليزية في تركيا في القرن الثامن عشر. نشر آن ماري مولان وببير شوفان- باريس ١٩٩١. رسالة من الليدي مونتاغو إلى الأب كونتي في ١٧ أيار ١٧١٧- ص ١٦٩.
- ٣٦- المصدر السابق -رسالة إلى الليدي مار (كذا). أدرينبول (كذا)- ١٨ أيار ١٧١٧.

